المصري محمد أبوالنجا يرصد الخراب ليشكّله خيالات ضاجة بالحياة

القاهرة - يفتتح الأحد غاليري "ديمي" بالعاصمة المصرية القاهرة، معرض "كاتم الأسرار" للفنان التشكيلي المصري محمد أبوالنجا، الذي يستمر حتى الرابع والعشرين من أكتوبر الجاري.

وعن المعرض قال أبوالنجا "يدور موضوع الأعمال حول منطقة كوم غراب التي تقع مواجهة لمرسمي بمصر القديمة، وهي تلة مهجورة تعلوها شجرة كبيرة، وهذه التلة عبارة عن بقايا لمنازل مهدّمة منذ زمن، هذا المثير البصري من جدران وألوان وأزقة وفتحات كالمغارات وما يسكنها حاليا من حيوانات.. هذه الصورة التي تقع عليها عيني كلما نظرت من مرسمي تخطفني لخيالات بديعة وتدفعني لمشروع بصري فني، محاولا التنقيب عن أسرار روح المكان والكشف عن مدلولات العناصر وشواهد الحياة التي كانت".

وتابع "أسعى للوصول إلى قراءة السلوك الاجتماعي والثقافي الشعبي الذي ساد مناطق الفقراء والبسطاء، والذي تخبرنا به ألوان الحجرات التي تكشفها تلك الفانتازيا بين ألوان حجرات المعيشة وغرف النوم على سبيل المثال، من هنا انغمست في هذه التجربة وجذبتني روح المكان الطيبة والشريرة، والتي رأيت الشجرة التي تعلو هذه الهضبة رمزا لها".

محمد أبوالنجا

الخراب يخوّل لي التنقيب في عناصره وتحويله إلى دلالة معرفية

ويرى أبوالنجا أن الخراب كان ولا يزال مادة إنسانية تخوّل للفنان التنقيب في عناصره وتحويله إلى دلالة معرفية، قائلا "وأنا أتفحّص تلك الهضبة التي درج على وصفها بـ'كوم غراب'؛ جبل الفقراء بمصر القديمة، تخبرني طبقات تلك الهضبة بتواريخ إنسانية، لمجتمعات كانت تحتفي بتلك الحياة البسيطة؛ بذلك الإرث الفانتازي للحضور الشعبي، من هذه المادة استلهمت حفائري البصرية المحتفية بالبقايا المهدّمة من البيوت".

من هذا المنطلق حوّل أبوالنجا بصريا كل تفصيلة تحتويها طبقات تلك الهضبة، إلى دلالة للوجدان الشعبي الاجتماعي الذي تراكم بطقوسه ومعارفه.

ويفتح الفنان هنا كل الأماكن السرية في روح الجبل، ويضيف إليها ما تكاثف في الذاكرة التي شكّلتها الأساطير والعقائد والأديان، ويجد المتلقّي في طيات وخبايا العمل تلك الأجساد التي أتت من تصاوير الواسطي والتصاوير الهندية القديمة، الأمر الذي يحيله إلى وصل ما ينكشف داخله من إرث إنساني.

وفي ذلك يقول أبوالنجا "نحن هنا أمام توليفة عجائبية تتعدّى مجتمع كوم غراب في تاريخه المعاصر الذي نعرفه، نحن أمام إعادة صياغة لفكرة إنسانية عمّقها تحقيب الفنان في التاريخ البصري للأثر".

والفنان المصري مهتم بخامة وعجائن الورق، حيث نفّذ العديد من أعماله بهذه الخامة في رؤية حديثة تتّسم بالثراء الشكلي، متحرّرا من التقنيات التقليدية.

ومن أشهر أعماله الفنية مجموعة "وجوه الثورة" وهي بورتريهات استلهمها أبوالنجا من أحداث ثورة 25 يناير 2011 بمصر، وتحديدا من الأحداث التي شهدها شارع محمد محمود القريب من ميدان التحرير، والتي نتجت عنها إصابات كثيرة في العيون أدّت إلى أن يفقد العديد من الشباب الثائر بصرهم.

أما المجموعة الثانية فهي التي عرضها في الدوحة أواخر عام 2012 ضمن معرضه "القاهرة 11، والتي حشد فيها رموزا من القاموس الثقافي المصري واستخدم فيها تقنيات على الرّش "الاستنسل – القوالب المفرغة" المعروفة للاستخدام عند الكتابة والرسم على الجدران في الثورة، وفي ذلك تفاعل واضح من الفنان ليس مع موضوع الثورة فحسب، بل مع أدواتها وتقنياتها.

وشارك أبوالنجا بورشات عمل فنية محلية ودولية منها ورشة عمل دولية في اليابان عام 1996. ويعود له تأسيس ملتقى "نور الشكل" رمضان 2004، وهو صاحب فكرة "خيال الكتاب"، أنجح بينالي لكتاب الفنان في مكتبة الإسكندرية 2002 و2005، وفي العام 2009 نسّق بينالي الإسكندرية الخامس والعشرون لدول البحر المتوسط. كما قام بتصميم العديد من المجلات وأغلفة الكتب، وعمل ديكورات لعدد من الأعمال المسرحية المصرية، وله دراسة عن دور الخامة غير التقليدية في العملية الإبداعية.

حظيت باكورة أعماله الفنية باهتمام كبير في الأوساط النقدية عندما عرضت الأولى في مكتبة الإسكندرية الجديدة، حيث لا تزال حتى يومنا هذا موجودة هناك في المعرض الدائم للمكتبة. ومنذ مطلع التسعينات أقام العديد من المعارض الشخصية والجماعية المحلية والعربية والدولية، والتي تنوّعت بين التصوير والفيديو والتركيب، ورشّح لتمثيل مصر في بينالي القاهرة الدولي عام 1998، كما مثل مصر في بينالي فينيسيا 2002.

وولد الفنان التشكيلي المصري محمد أبوالنجا في مدينة طنطا عام 1960، وتخرّج من كلية الفنون الجميلة بجامعة الإسكندرية (قسم تصوير) عام 1983، وحصل على شهادة الماجستير في الفنون عام 1992، لينال في العام 1997 من الجامعة نفسها شهادة الدكتوراه في فلسفة الفنون. وهو عضو نقابة الفنانين التشكيليين بالإسكندرية.

حصل سنة 1994 على منحة من هيئة اليونسكو (فنانو شمال أفريقيا)، وعلى منحة من المؤسسة اليابانية عام 1996 لمدة ستة أشهر، وهي المرة الأولى التي يحصل عليها فنان من الشرق الأوسط.

وحاز على العديد من الجوائز المحلية والدولية، منها: الجائزة الثانية من بينالي بورسعيد القومي الثالث 1996، وجائزة بيكاسو الشرفية التي نظمتها إسبانيا على مستوى العالم، وجائزة حوض البحر المتوسط عام 1997، وجائزة بينالي القاهرة الدولي 1999، وجائزة بينالي الإسكندرية 2001.

وتشكّل أعمال أبوالنجا جزءا من العديد من المجموعات الفنية الخاصة والعامة مثل متحف الفنون الحديثة في القاهرة، ودار الأوبرا في القاهرة، والمتحف الوطني الأردني للفنون الجميلة في عمّان، وأكاديمية الورق في كيوتو اليابان والصندوق العربي في الكويت.

شجرة تحتل بقايا منازل مهدّمة

صراع وجود وبقاء

أفكار حبيسة وحرية شريدة

لوحات طافحة بالشجن

يونس السيد يحاصر المجاز ليسبر أغواره

الفنان السوري يتعثّر بهدير البقاء ناشدا الصفاء رسما ولونا

كائنات تعبق بالأمل رغم الألم

بعض الأسماء تلد كبيرة، لا تحتاج إلى مرحلة الكمون لتعلن عن ذاتها، رغم تجربتها القصيرة. ورغم الظروف السيئة التي ولدت فيها تلك التجربة الفتية إلا أنها استطاعت أن تثبت ذاتها ومقدرتها على الفعل الذي يأتي إغناءً لخطاب جمالي كاندفاعات للحظات أكثر رهافة وأشدّ خطرا، لا يكل ولا يهدأ، وحالما في حضرة الصراع الكوني الشامل وبما يلهب خياله لاستخراج كل ما يؤرقه من ترسبات في قاع ذاته. والتشكيلي السوري يونس السيد واحد من هؤلاء.

غريب ملا زلال
كاتب سوري

خرج الشاب السوري يونس السيد من الحرب جريحا قبل سنوات قريبة، ليكون ذلك منعطفا في حياته، فيدير وجهه نحو قلم الرصاص بداية، وهو مازال ممدّدا على السرير في المستشفى، باحثا عن طريق جديد يلوّن به حياته الجديدة ويمنحه عبق وجود متجدّد، وحين وجد ذلك مطواعا بين أصابعه –وكان قد أصرّ على أن يكون فنانا– بدأت الألوان تجذبه أكثر.

بدأ يمنح ذاته الحرية المطلقة في نقل رسومات لأسماء معروفة وأجاد في ذلك، وهو يدرك أنه إن اكتفى بذلك فلن يتحقّق حلمه ولن يكون فنانا حقيقيا، عليه أن يدير الدفة إلى ذاته، إلى الكشف عن تخيّلاته وما يتسلّل إليها من رؤى فيستيقظها ويكرّسها في منجزه.

قد يلقفها من نشيده حتى تمتثل لمقولاته وشروطها الفنية، عليه أن يضيء مصابيحه لا بالمدرك المتعارف عليه، بل بما يتجلى في دواخله وفضاءاتها أولا، وبما يصطبغ به محيطه من علاقات بين مفرداته ثانيا.

عليه أن يقرن نصه/ منتجه بأشدّ العناصر إحياء له ولكائناته لإبعاده عن التلف الذي قد يلاقي طريقه إليه، وتطهيره من الأدران التي كانت قد ظهرت فيه وفي ثيمته.

ولادة جديدة

يونس السيد من الأسماء التي ولدت قبل أوانها، قبل أن تُكمل دورتها التسعوية، ولد من رحم وجع، من ركام ألم أهداه مكاشفات بدايتها مفتوحة ونهايتها أيضا، وتتّسم بإبداع يرتقي بحركاته التي تحوّل مدركاته من مغادرة الحنين المفتون بالتوّغل في مداراته.

ولد وفي ولادته توجد مفعولات السحر لكل ما يوقظ في نفسه من آمال وحضور ورغبات كلها تجزم بأنه قادر على أن يرسم قوله ويعلنها على الملأ بعيدا عن الوهم وكل المنزلقات الأخرى، وحدها ثقته بريشته وما تنبض بالحياة هي خصاله في أعلى قيمها.

لم يمض من الزمن إلاّ القليل، وهو يعوم بين ألوانه وفضاءاته البيضاء، عازفا عليهما بريشته حتى تبدأ إيقاعاته ومجازاتها بإرسال تصوّراته ودلالاته كأحلام تسحب من ضلوعها ويفرشها على حبال روحه وقلبه.

وبينما هو في بدايته التشكيلية إذ بصالة "أدونيا" الدمشقية تدعوه لإقامة معرضه الفردي الأول الذي كان البذرة الأولى في رحلته الفنية، وبذلك تمكّن من إشعال فانوسه الأول ليهديه إلى الطريق الذي سلكه، وليكسر به ظلمات هذا الطريق وقتامته.

هكذا فتح يونس السيد مجراه الخاص في دائرة الجمال التي فيها سيصبّ كل روافده برحاب تفاصيلها وبتعالقات لحظاتها وتشابكاتها، وستلحّ عليه بخلق علاقات من التوازن بين كل ذلك.

علاقات تحكمها مروج من المناحات التي يرعاها الفنان على شكل توالدات بقصد الوصول إلى التكثيف الذي يؤدّي به إلى استنهاض حركات نصه بما يرتقي إلى التمكين المنغرس فيه بكل كلماته وصوره ورموزه لا إلى الإبانة والإيضاح، إلى الذرى التي سيرتادها السيد بحماس واحتجاج، أو إلى اللجج وقصف الحكايات بأسرارها عدولا عن الوقوع في الرتابة أو في نوع ما من اللبس الذي لا يرى.

هو يتبنّى أحداثا حقيقية تعلن عن ذاتها بكل طقوسها وسلوكها، يتبنى خطابا بمكوّناته الذاتية، منتشلا منتجه من الوهن الذي قد يظهر بين ملامح تجربته إذا تركت في حشدها بإيقاع قائم على التماثل لا التغاير، إذا لم يلجأ إلى فتح مجراه الخاص ويستند إليه في كل استحضاراته التي بها سيشرع في تأسيس قواعده في ورطته الجميلة، ويتكئ عليها في المضي نحو منتج طافح بالشجن.

فهو يسلّم بأن مفاتيح الوصول لا تكمن في الإيضاح بل في الإيحاء، وبأنها لا تملك أجنحة نسر بل جسارتها، ولا قوائم غزال بل رشاقتها، فثمة إبانة تتراءى فيها على نحو متزامن تُمكّن منتجه من التشكّل والتعاضد وفق نسق بموجبه يتّضح الحيّز الواهي الذي فيه تتقاطع البدايات مع النهايات مشكّلة زمن منتجه وقد ابتناه باندفاعاته المليئة بهدوئه وصخبه، بصمته وصراخه حتى كادت تصبح نبوءة توغل في المجيء.

> **لوحات الفنان تسلّم بأن مفاتيح الوصول لا تكمن في الإيضاح بل في الإيحاء، وبأنها لا تملك أجنحة نسر بل جسارتها**

بين واقع ومتخيّل

السيد يحاصر السطوح لينتقل إلى غورها، يندسّ في الترحال بين خباياها منتشلا منها الموجودات والكائنات الطافحة بالحياة رغم غرقها في الفوضى، يمنحها أشكالا لا متناهية تردّ الروح للهب ألوانها الذي كان يحتمي بالصمت، يشرع في إحضار البعد الغائب وفق النهوض بالدلالة ومقدرتها على التسلّل إلى داخل المنجز وإرغام مفرداته على التجاور والتعايش، حرصا منه على إبهار المتلقي بالغريب من تصاويره وفق ما تمليه عليه استيهاماته، ويقف في حضرة مارّقه علّه يلامس جوهره ويكسر أقفاله الصدئة كلها، ويُهرّب ما يعثر عليه في اللحظة الحاضرة/ الهاربة خوفا عليها من الإكتواء بنار الحدث وقسوته، علّه يتعثّر في كل ذلك بهدير البقاء، فالفناء صاعق في كل حدب ودرب، ويطيح بتداعياته الهشة كي يشرع في إنجاز ما يجعل منجزه متميّزا.

السيد في لوحاته يدعو تلقائيا المتلقي إلى هدم الصور المكدّسة بين الأحابيل ليروّج بمجازاته واستعاراته إقامة عالم ينكر كل ما يتولّد عن الخراب، مركّزا على جانب تقني يجعله لا يكف عن ارتياد لحظة المكاشفة وتمثيلها في حضرة منجزه، متعمّدا الالتفات إلى الواقع المدرك أولا، فثمة رغبة ستعلن عن موتها، وإلى الواقع المتخيّل ثانيا، فثمة غرسة ستأتي يجب أن تُهيأ الأرض لاستقبالها.

وهذا الانتقال الجميل بينهما، بين الواقع والمتخيّل، يكشف له حركة نزوح كل منهما باتجاه الآخر، فينجح السيد في رسم الهول بينهما دون أن تخذله مفرداته أو يعطله نحيب التعاقب بينهما، ودون أن تطفئ الريح شموعه التي على ضوئها سيقتفي أثر فراشاته.